الفصل الثامن

الحياة العلمية

- أولًا : ثقافة هارون الرشيد.
- ثانيًا : سياسة الرشيد في تقريب العلماء.
- ثالثًا : بغداد الرشيد.. كعبة العلم والعلماء.
- رابعًا : إنشاء هارون الرشيد بيت الحكمة.
- خامسًا : الأدب في عهد هارون الرشيد.
- سادسًا : اهتمام هارون الرشيد بعلوم الحياة.
- سابعًا : الترجمة في عهد هارون الرشيد.
- ثامنًا : صناعة الورق في عهد هارون الرشيد.

obeikandl.com

"كان فهم الرشيد فهم العلماء"

ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (8/ 323)

obeikandl.com

شهد العالم الإسلامي أيام الرشيد ازدهارًا علميًا وحركةً فكريةً ثقافيةً لم يشهد لها مثيل من قبل ولا من بعد، سوى فترات قليلة من تاريخ الأمة، ولعل من هـذه الفترات فترة المأمون بن الرشيد، وهذا ليس بغريب، إذ أخذ المأمون عن أبيه حب العلم وتقريب العلماء، ولكننا يمكن أن نقول إن الحركة العلمية في عهد المأمون لم تصل إلى ما وصلت إليه من الذروة لولا جهود أبيه الرشيد من قبل، ومن قبلهما المنصور والمهدي. ولعل انتعاش الحياة في عهد الرشيد اقتصاديًا واجتماعيًا وسياسيًا كان له أثرٌ بالغٌ في ازدهار الحركة العلمية حتى اجتمع في عهد الرشيد من العلماء ما لم يجتمع إلا للقلائل من الملوك والخلفاء. فانتشر العلم وتطورت الحضارة وشهدت البلاد نهضةً فكريةً لم يُعهد بها من قبل.

obeikandl.com

أولًا: ثقافة هارون الرشيد

لم يكن اهتمام الرشيد بالعلم والعلماء نابعًا من فراغ، بل كان ذلك مطبوعًا في نفسه، لتربية علمية تربى عليها منذ صغره، فقد كان الرشيد مثقَّفًا ثقافة عربية وإسلامية واسعة، جمع إلى عقله الراجح أدبًا رفيعًا وتذوقًا ممتازًا رائعًا للشعر واللغة، لذلك قيل: "كان فهم الرشيد فهم العلماء"[1].

تلقى الرشيد علوم اللغة والأدب والفقه والدين على كبار رجال عصره، أمثال الإمام مالك بن أنس وعبد الله بن المبارك والمفضل الضبي والكسائي والأصمعي، أخذ عن هـؤلاء وغيرهم الأدب واللغة والنحو والفقه والتاريخ، فضلًا عن ملكته الشعرية وذوقه الأدبي واستعداده الفطري لطلب العلم دون تكبر أو استعلاء.

وكان هـارون الرشيد حريصًا على طلب العلم يطلبه من أهله، ولم تمنعه هـيبة الخلافة أو جلال المكانة من السؤال عما لا يعرف، قال القاضي الفاضل: "ما أعلم أن لملك رحلة قط في طلب العلم إلا للرشيد، فإنه رحل بولديه الأمين والمأمون لسماع الموطأ على مالك رحمه الله قال: وكان أصل الموطأ بسماع الرشيد في خزانة المصريين، قال: ثم رحل لسماعه السلطان صلاح الدين بن أيوب إلى الإسكندرية، فسمعه على بن طاهر بن عوف، ولا أعلم لهما ثالثًا"[2].

وكان رحمه الله راوية للحديث الشريف، ومما رواه الرشيد من الحديث، قال الصولي: حدثنا عبد الرحمن بن خلف، حدثني جدي الحصين بن سليمان الضبي،

(1) أبو سعد الآبي: نثر الدر في المحاضرات، 3/ 69. ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، 8/ 323. الزمخشري: ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، 2/ 91. شوقي أبو خليل: هارون الرشيد أمير الخلفاء وأجل ملوك الدنيا، ص 52.

(2) السيوطي: تاريخ الخلفاء، 1/ 217.

سمعت الرشيد يخطب فقال في خطبته: حدثني مبارك بن فضالة، عن الحسن، عن أنس قال: قال النبي ﷺ: "اتقوا النار ولو بشق تمرة"[1].

وحدثني محمد بن علي، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: "نظفوا أفواهكم فإنها طريق القرآن"[2].

وما رواه هـارون الرشيد في حب آل البيت وأبناء علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال الرشيد: حدثني أبي المهدي عن أبيه المنصور عن محمد بن علي عن أبيه عن ابن عباس أنه سمع النبي ﷺ يقول في الحسن والحسين: "من أحبهما فقد أحبني، ومن أبغضهما فقد أبغضني"[3]، وسمعه يقول: "فاطمة سيدة نساء العالمين، غير مريم ابنة عمران وآسية بنت مزاحم"[4].

---

(1) السيوطي: تاريخ الخلفاء، 1/ 219. هذا الحديث رواه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب اتقوا النار ولو بشق تمرة والقليل من الصدقة، رقم (1351) ومسلم في صحيحه، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار، رقم (1016) من طريق عدي بن حاتم رضي الله عنه.

(2) السيوطي: تاريخ الخلفاء، 1/ 219. هذا الحديث أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، فصل في السواك لقراءة القرآن، رقم (1940) من طريق سمرة بن جندب، بلفظ: (**طيبوا أفواهكم بالسواك فإنها طرق القرآن**)، والألباني في صحيح الجامع الصغير وزياداته (3939، 3940). وقال الألباني: صحيح.

(3) هذا الحديث رواه النسائي في السنن الكبرى، كتاب المناقب، باب فضائل الحسن والحسين ابني علي بن أبي طالب (8168)، وابن ماجه في السنن، باب فضائل الحسن والحسين ابني علي بن أبي طالب (143)، من طريق أبي حازم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(4) هذا الحديث رواه الترمذي (3873) عن أنس بلفظ: «ثم أخبرني أني سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم ابنة عمران»، وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه. ورواه الترمذي (3878) عن أنس بلفظ آخر: «حسبك من نساء العالمين مريم ابنة عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وآسية امرأة فرعون»، وقال: هذا حديث حسن صحيح. السيوطي: تاريخ الخلفاء، 1/ 216.

ثانيًا: سياسة الرشيد في تقريب العلماء

كان أكثر حرص هـارون الرشيد أن تكون مجالسه مجالس العلم والأدب والفقه، فكان يحب العلم ويؤثره، حتى نال علمًا كثيرًا، وكانت لَهُ فطنة قوية، وكان يحبّ الشّعر والشّعراء ويميل إلى أهل الأدب والفقه، ويكره المراء في الدين، ويقول: "هو شيء لا نتيجة له، وبالحريِّ ألا يكون فيه ثواب"، وكان يحبّ المديح، ولا سيّما من شاعر فصيح ويجزل العطاء عليه، ويشتريه بالثمن الغالي الربيح[1].

قال ابن الفرات: "كان الرّشيد يتواضع لأهل العلم والدّين، ويكثر من محاضرة العلماء والصالحين"، قال أبو معاوية الضرير وكان من علماء الناس: "أكلت مع الرشيد يومًا فصبّ على يديّ الماء رجل، فقال لي: يا أبا معاوية أتدري من صبّ الماء على يدك؟، فقلت: لا يا أمير المؤمنين، قال: أنا، فقلت: يا أمير المؤمنين أنت تفعل هـذا إجلالًا للعلم؟، قال: نعم إجلالًا للعلم".

وكان أبو معاوية الضرير عند الرشيد فقال: يا أمير المؤمنين أحتاج إلى موضع الخلاء، فقال للأمين والمأمون: خذا بيد عَمِّكُمَا فأرياه الموضع. قال: فأخذا بيدي فأدخلاني إلى موضع، شممت منه رائحة طيبة، فقالا: يا أبا معاوية، هـذا الموضع فشأنك، فقضيت حاجتي، فحدثته أن النبي ﷺ قال: "يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ لَهُمْ نَبْزٌ، يُقَالُ لَهُمُ: الرَّافِضَةُ، مَنْ لَقِيَهُمْ فَلْيَقْتُلْهُمْ فَإِنَّهُمْ مُشْرِكُونَ".

وكان الرشيد رحمه الله يحب الحديث وأهله، فقد قال مالك بن أنس رحمه الله: "وجه إليَّ هـارون الرشيد يسألني أن أحدثه، فقلت: يا أمير المؤمنين إن العلم يؤتى ولا يأتي، قال: فصار إلى منزلي، فاستند معي إلى الجدار، فقلت: يا

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 347. ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، 8/ 322. ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، 1/ 192.

أمير المؤمنين إن من إجلال الله إجلال ذي الشيبة المسلم، قال: فجلس بين يدي، قال: فقال لي بعد مدة، يا أبا عبد الله: تواضعنا لعلمك فانتفعنا به، وتواضع لنا علم سفيان بن عيينة، فلم ننتفع به". وقد سمع الرشيد الحديث من مالك بن أنس، وإبراهيم بن سعد الزّهري، وأكثر حديثه عن آبائه. وروى عنه القاضي أبو يوسف، والإمام الشافعي رضي الله عنهما، وللرشيد مشاركة في الفقه، والعلم، والأدب[1].

وسأل الرشيد جلساءه: من أكرم الناس خدمًا؟ فقالوا: أمير المؤمنين. فقال: لا، بل الكسائي! فقد رأيته يخدمه الأمين والمأمون وليًا عهد الخلافة[2]. وقيل: إن الرشيد أقدم أبا عبيدة معمر بن المثنى من البصرة إلى بغداد سنة 188هـ، وقرأ عليه بعض كتبه، وهي تقارب مائتي مصنف، منها: كتاب (مجاز القرآن)، وكتاب (غريب الحديث)، وكتاب (مقتل عثمان)، وكتاب (أخبار الحجاج). وقال أبو عبيدة: أُدخلت على هـارون الرشيد، فقال لي: يا معمر، بلغني أن عندك كتابًا حسنًا في صفة الخيل أحب أن أسمعه منك[3].

وإنما قرب العلماء إلى الرشيد لما في نفسه إلى الميل إلى الأدب والحرص على إحراز العلوم، حتى كانوا إذا اجتمعوا بداره سما إلى مناظرتهم من حيث العلم والتواضع له، لا من حيث السيادة عليهم، وكان يبتغي بتواضعه للعلم مع ماهـو مطبوع في نفسه من الإجلال له أن تحصل له الغاية التي رومها من صلاح أمره باستمالة الأئمة من العلم، حتى يستقيم ملكه من ناحية القلم، كما استقام له من ناحية السيف[4].

(1) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، 3/ 135، 16/ 12. ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، 8/ 323. الذهبي: سير أعلام النبلاء، 9/ 288. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، 2/ 431 – 433. أبو هلال العسكري: الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه، 1/ 84.

(2) الثعالبي: درر الحكم، الناشر: دار الصحابة – طنطا، الطبعة الأولى، 1416 هـ – 1995م، ص43.

(3) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 5/ 235 – 237. الذهبي: سير أعلام النبلاء، 9/ 446 – 447.

(4) جميل نخلة المدور: حضارة الإسلام في دار السلام، ص 113.

ولأن الرشيد فطن أن الأمة الناهضة هـي التي تولي للعلم اهتمامًا وللعلماء منزلة ومكانة، وهذا هـو السر الذي أراه مناسبًا ومفسرًا لحالة الانتعاش العلمية الكبرى في عهد الرشيد، حتى إني قرأت خبرًا عجيبًا عن مدى إنفاق الرشيد من أجل نشر العلم وتشجيع أهله، أن الرشيد حين قدم الرقة، لقي عبد الله بن المبارك، فلما هـم بالقيام من عنده – كان قد زاره في داره – قال ابن المبارك: يا أمير المؤمنين، إني أخشى أن يكون العلم قد ضاع قبلك كما ضاع عندنا، فقال الرشيد: أجل، إنه ما قلت. ثم لما قدم الرشيد العراق كان أول ما ابتدأ فيه النظر: أن كتب إلى الأمصار كلها، وإلى أمراء الأجناد: "أما بعد، فانظروا من التزم الأذان عندكم، فاكتبوه في ألف من العطاء، ومن جمع القرآن وأقبل على طلب العلم وعمر مجالس العلم ومقاعد الأدب، فاكتبوه في ألفي دينار من العطاء، ومن جمع القرآن وروى الحديث وتفقه في العلم واستبحر، فاكتبوه في أربعة آلاف دينار من العطاء، وليكن ذلك بامتحان الرجال السابقين لهذا الأمر من المعروفين به من علماء عصركم وفضلاء دهركم، فاسمعوا قولهم وأطيعوا أمرهم فإن الله تعالى يقول: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾. وهم أهل العلم.

قال ابن المبارك: "فما رأيت عالمًا ولا قارئًا للقرآن ولا سابقًا للخيرات ولا حافظًا للمحرمات في أيام بعد أيام رسول الله ﷺ وأيام الخلفاء والصحابة أكثر منهم في زمن الرشيد وأيامه"[1].

وهذا الخبر وإن كان إلى المبالغة ما هـو، ولكنه في أصله حقيق بالتصديق، فإن مناقب الرشيد رحمه الله كثيرة لا تضيق من دونه، وقد صحت الرواية بأنه ما اجتمع على باب خليفة قبله ما اجتمع على بابه من الشعراء وأهل الأدب، وقد كان يتفقدهم ويتقدم في طلبهم ويحظيهم ويفضل عليهم، وماهـذه الرواية إلا بسبيل من تلك، ولتلك أقرب إلى الحق وأعلق بأسباب الزمن[2].

(1) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، 1/ 300 – 301.

(2) مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب، 2/ 97، هامش رقم (2).

ثالثًا: بغداد الرشيد..
كعبة العلم والعلماء

بغداد تلك المدينة التي أبت عبر التاريخ أن تتسمى بغير اسمه، فكان اسمها عبر التاريخ (بغداد الرشيد)، تلك التي توحي لمن يسمعها معاني كثيرة، أقلَّها أن بغداد وصلت في عهده إلى درجة من الرقي والفخار لم تصل إليها من قبله ولا من بعده. لم لا، وبغداد الرشيد - كما وصفها اليعقوبي - وسط الدنيا وسرة الأرض والمدينة العظمى التي ليس لها نظير في مشارق الأرض ومغاربها، سعة، وكبرًا، وعمارة، وكثرة مياه، وصحة، وهواء[1].

ويكفيك أن تعرف قيمة بغداد الرشيد من وصف الشافعي رحمه الله، الذي دخل بغداد سنة 184هـ زمن خلافة الرشيد يقول: "ما دخلت بلدًا قط إلا عددته سفرًا، إلا بغداد، فإني حين دخلتها عددتها وطنًا". ومرة قال لصاحبه يونس بن عبد الأعلى: يا يونس دخلت بغداد؟ قال: لا. قال الشافعي: "يا يونس ما رأيت الدنيا، ولا رأيت الناس". وقال فيها أبو بكر بن عياش رحمه الله (ت: 193هـ): "الإسلام ببغداد، وإنها لصيادة تصيد الرجال، ومن لم يرها فلم ير الدنيا"[2].

صارت بغداد الرشيد قبلة لطلاب العلم من جميع الأمصار الإسلامية، يرحلون إليها ليتمموا ما بدأوا فيه من العلوم والفنون، فهي المدرسة العليا لطلاب العلوم الدينية والعربية على اختلافها، فقد كان فيها كبار المحدثين والقراء والفقهاء وحفاظ اللغة وآداب العرب والنحويون، وكلهم قائمون بالدرس والإفادة لتلاميذهم في المساجد

(1) اليعقوبي: البلدان، ص11.

(2) انظر مناقب بغداد في: الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، 1/ 346 - 358.

الجامعة التي كانت تعتبر مدارس عليا لتلقي هـذه العلوم، وقلّما كان يتم إنسان وصف عالم أو فقيه أو محدث أو كاتب إلا إذا رحل إلى بغداد وأخذ عن علمائها.

لقد بلغت بغداد في أيام الرشيد مكانة لم تظفر بها مدينة في ذلك العهد. وأصبحت مهد الحضارة، ومركزًا للفنون والآداب، وزخرت بالأدباء والشعراء والعلماء والحكماء. وأنشئت فيها المراصد والمكتبات والبيمارستانات والمدارس. وإليه يعزى تأسيس بيت الحكمة، الّذي جمع له من الكتب شيئًا كثيرًا، وكان مجتمع المتصلين بالعلم، والمشتغلين بالفن، والراغبين في الأدب[1].

يقول فيليب حتى واصفًا بغداد الرشيد: «أصبحت بغداد مركزًا للغنى الباذخ والأهمية العالمية، ولم يكن قد مضى بعد على تأسيسها نصف قرن، فوقفت وحدها تضاهي بيزنطة، وكان مجدها متناسقًا مع الإمبراطورية التي كانت هـي عاصمتها، حتى قيل: (لم يكن لبغداد في الدنيا نظير)»[2].

وهكذا كانت بغداد الرشيد أهم مراكز الإشعاع العلمي والحضاري في العالم أجمع، جاءها العلماء من كل بلاد الدنيا، ليتعلموا على أيدي علمائها وليتزودا ما شاءوا من المعارف، قصدها العلماء والأطباء والمهندسون والمفكرون والشعراء والأدباء والفنانون.

(1) ابن قتيبة الدينوري: المعارف، مقدمة المحقق، ص 9. صلاح الشهاوي: الخليفة المجاهد العابد هارون الرشيد، مجلة حراء الإلكترونية، 21 آذار/ مارس 2012م.

(2) فيليب حتى: العرب تاريخ موجز، ص116.

رابعًا: إنشاء هارون الرشيد بيت الحكمة

إن الحدث الفريد في تاريخ العلم في الحضارة الإسلامية هو إنشاء هارون الرشيد بيت الحكمة، الذي كان الانطلاقة الحقيقية للنهضة العلمية في العالم الإسلامي؛ حيث يعتبر بيت الحكمة أول مكتبة عامة ذات شأن في العالم الإسلامي، ولعله أول جمعية علمية، أو جامعة إسلامية يجتمع فيها العلماء للبحث والدرس ولجأ إليها الطلاب، فكان بذلك مركزًا علميًا شمل علوم الطب والفلسفة والحكمة وغيرها[1].

ويكاد يجمع المؤرخون أن الخليفة العباسي هارون الرشيد هو الذي وضع النواة الأولى لـ(بيت الحكمة) في بغداد، حيث أسس ما عرف باسم (خزانة الحكمة)، نتيجة لما تميز عهده من ازدهار حضاري وعلمي وخصوصًا حركة الترجمة والتأليف، كان الهدف منها إغناء الفكر العربي بالمزيد من العلوم والمعارف المختلفة.

وبلغ اهتمام الرشيد بالكتب وجمعها إذ إنه عندما استولت جيوشه على عمورية وأنقرة أمر عماله بالمحافظة على مكتباتها، وأرسل جماعة من العلماء لفحص هذه المكتبات، وجلب منها النادر والنفيس من تلك المؤلفات ونقلها إلى بغداد، وكانت هذه الكتب محط اهتمام الرشيد الذي أمر بدراستها ووضع الشروح لها، وفضلًا على هذه الكتب فإنه قد أُلِّفَت في عهده العديد من المؤلفات في التاريخ والفقه والحديث وغيرها، ونتيجة لذلك أصبحت لديه مجموعة كبيرة من الكتب، وبالإضافة إلى الكتب التي جمعت في عهد المنصور وابنه الخليفة المهدي، فعندئذ شيَّد الرشيد خزانة لحفظ هذه الكتب من الضياع[2].

(1) عبد الحليم منتصر: تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه، ص43.

(2) عبد الباسط عبد الرزاق الألوسي، عثمان عبد العزيز صالح المحمدي: من روائع الحضارة الإسلامية بيت الحكمة أنموذجًا: دراسة تاريخية. مجلة ديالي 2009م، الإصدار: 34، ص190.

وقد حوت مكتبة بيت الحكمة كتبًا وضعت في الأصل بلغات مختلفة، ومن أهمها الكتب اليونانية والفارسية والهندية والقبطية والآرامية، وقد جمع الرشيد في بيت الحكمة كثيرًا من المؤلفين، والمترجمين والنساخ، ومن أشهرهم: "سهل بن هـارون"، و"الحسين بن سهل"، و"الفضل بن نوبخت"، وكانوا يترجمون من الفارسية إلى العربية. و"حنين بن إسحاق"، و"يوحنا البطريق"، و"يوحنا بن ماسويه"، وكانوا يترجمون من اليونانية والسريانية إلى العربية، وقد نقل ابن أبي أصيبعة أن الرشيد قلد يوحنا بن ماسويه ترجمة الكتب القديمة، مما وجدها في أنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم حين غزاها المسلمون، وكانت تضم غرفًا عديدة تمتد بينها أروقة طويلة، وخُصصت بعضها للكتب، وبعضها للمحاضرات، وبعضها الآخر للناسخين والمترجمين والمجلدين.[1].

(1) عبد الحليم منتصر: تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه، ص42 – 43. موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي: الأوضاع الحضارية في العصر العباسي الأول، 3/ 31 – 32.

obeikandl.com

خامسًا: الأدب في عهد هارون الرشيد

إذا كان لعصر الرشيد ميزة خاصة من بين ميزاته الكثيرة التي أشبعت بحثًا في كتب التاريخ والتاريخ الأدبي، فهي شيوع المتعة الأدبية والفكرية، حتى ليخيل إليك أنها مطلب الجماهير الشعبية، فضلًا عن كونها بغية النخبة، وقد انغمس فيها كل عربي وكل مستعرب، وكل مسلم وكل من لم يسلم، من فصح لسانه، ومن لم يخل لسانه من لكنة.

فالواقع أن عصر الرشيد قد وهب غير نخبة ممتازة في ميدان الفكر والأدب، فهو عصر التحقيق العلمي للفقه والحديث، للشعر واللغة. كان فيه الإمام مالك والشافعي وسفيان الثوري وسفيان بن عيينة وعبد الله بن المبارك ومحمد بن الحسن والقاضي أبو يوسف من أئمة الاجتهاد في الفقه. كما كان فيه من علماء اللغة سيبويه وأبو زيد الأنصاري ويونس بن حبيب وأبو جعفر الرؤاسي وهو أستاذ الكسائي والفراء. وفي هـذا العصر كان فيه تحقيق الرواية الشعرية وضبط الشعر القديم على يد نخبة من كبار الرواة من زعماء مدرستي البصرة والكوفة، وفي مقدمتهم: خلف الأحمر، والأصمعي، وأبو عبيدة معمر بن المثنى، والمفضل الضبي، والكسائي، والأحمر علي بن المبارك كان يؤدب الأمين بتعيين الكِسائيّ لَهُ، وهو أول من دوَّن عن الكسائي. ومعظم هـؤلاء كان لهم حلقات وتلاميذ وجمهور يستمع إلى الشعر منهم، أو قراءة من أحد التلاميذ يصححها الشيخ ويعلق عليها ويشرحها.

وقد كان في عصر الرشيد عدد من الشعراء هـم نخبة في الإبداع الفني، منهم من اختص شعره بالجدِّ، مثل: مروان بن أبي حفصة، ومنصور النمري، وكلثوم العتابي، والعماني الراجز، وسلم الخاسر. ومنهم من قصر شعره على الغزل، مثل: العباس بن الأحنف. ومنهم من نظم معظم شعره في اللهو والمجون كأبي نواس[1].

(1) سعدي ضناوي: موسوعة هارون الرشيد، 1/ 28. بتصرف.

إن كتب الأدب حافلة بأدب الرشيد وأشعاره، وتقريبه لأهل العلم والفضل والأدب، حتى أنه كان يجالسهم، وما كان يفارقهم، يستشيرهم وينزل عن رأيهم، ويصحبهم معه في حله وترحاله، فما كان رحمه الله يقدر على فراقهم والبعد عنهم. فلم يكن الرشيد رجلًا ينسى نصيبه من الدنيا، بل كان مقبلًا عليها، آخذًا حظه منها. قال الأصمعي: «كان الرشيد يحب السمر ويشتهي أحاديث الناس[1]». وقال الجاحظ: «ولم يكن أحد من أصحابنا، من خلفائنا وأئمتنا، أحظى في الشعر من الرّشيد»[2]، أي أكثر احتفالاً بالشعر وأهله.

لقد كان هـارون الرشيد خطيبًا مفوهًا، وشاعرًا جذلًا، وأديبًا ناقدًا، فهو في خطبه يجمع بين الاستهلال البديع والعرض الشائق والاقتباس المناسب من القرآن والسنة وأقوال الصالحين، ذكر ابن عبد ربه في العقد الفريد نموذج خطبة لهارون الرشيد، بعد أن حمد الله وصلى على رسول ﷺ، قال: «أوصيكم عباد الله بتقوى الله؛ فإن في التقوى تكفير السيئات، وتضعيف الحسنات، وفوزا بالجنة، ونجاة من النار، وأحذركم يومًا تشخص فيه الأبصار، وتبلى فيه الأسرار، يوم البعث ويوم التغابن، ويوم التلاقي ويوم التنادي، يوم لا يستعتب من سيئة ولا يزداد من حسنة، ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: 18 - 19]، عباد الله، إنكم لم تخلقوا عبثًا، ولن تتركوا سدًى، حصّنوا إيمانكم بالأمانة، ودينكم بالورع، وصلاتكم بالزكاة،.. وإياكم والأماني، فقد غرّت وأوردت وأبقت كثيرًا حتى أكذبتهم مناياهم، فتناوشوا التوبة من مكان بعيد، وحيل بينهم وبين ما يشتهون،.. إنّ أحسن الحديث وأبلغ الموعظة كتاب الله، يقول الله عز وجل: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: 204]»[3].

(1) أبو حنيفة الدينوري: الأخبار الطوال، ص489.

(2) الجاحظ: الحيوان، 4/ 445.

(3) ابن عبد ربه: العقد الفريد، 4/ 190 - 192.

وقد وصل إلى الرشيد أن عمه عبد الملك بن صالح يؤهل نفسه للخلافة، وأنه يراسل رؤساء القبائل والعشائر بالشام والجزيرة، فحبسه هـارون الرشيد سنة 188هـ، ثم دعاه من محبسه، فلما مثَّل بين يديه التفت إليه، ثم قال: «كأني أنظر إلى شؤبوبها قد هـمع، وإلى عارضها قد لمع، وإلى الوعيد قد أوري نارًا، فأقلع عن براجم بلا معاصم، ورؤوس بلا غلاصم، فمهلًا مهلًا بني هـاشم! لا تستوعروا السهل وتستسهلوا الوعر، ولا تبطروا النعم وتستجلبوا النقم، فعن قليل يذم ذو الحكم رأيه، وينكص ذو الحزم على عقبيه، وتستبدلون الذل بعد العز، والخوف بعد الأمن،..»، فلما خرج عبد الملك من عنده أتبعه الرشيد بصره، وقال: أما والله لولا الإبقاء على بني هـاشم لضربت عنقك[1].

وأما عن فن التوقيعات، فقد جمع فيه هـارون الرشيد بين قوة العبارة وجميل الإشارة ولطيف الكلمة، ذكر ابن عبد ربه جملًا من توقيعات الرشيد، ومنها:

وقَّع إلى صاحب خراسان: «داو جرحك لا يتسع».

ووقَّع لرجل من البرامكة: «أنبتته الطاعة وحصدته المعصية».

وإلى عامله على فارس: «كن مني على مثل ليلة البيات».

وإلى صاحب السّند إذ ظهرت العصبية: «كل من دعا إلى الجاهلية تعجّل إلى المنية».

وإلى عامله على خراسان: «كل من رفع رأسه فأزله عن بدنه».

ووقع إلى السندي بن شاهك: «خف الله وإمامك، فهما نجاتك»[2].

وأما عن شعر هـارون الرشيد، فكان الرشيد شاعرًا ذواقًا أديبًا، ذكر الصولي بسنده عن معاوية بن صالح عن أبيه قال: أول شعر قاله الرشيد أنه حج سنة ولي الخلافة 170هـ، فدخل دارًا، فإذا في صدر بيت منها بيت شعر قد كتب على الحائط:

(1) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، 2/ 513 – 514. مروج الذهب ومعادن الجوهر، 3/ 285 – 286.

(2) ابن عبد ربه: العقد الفريد، 4/ 296 – 298.

ألا يا أمير المؤمنين أما ترى فديتك هـجران الحبيب كبيرًا

فدعا بدواة، وكتب تحته بخطه:

بلى والهدايا المشعرات وما مشى بمكة مرفوع الأظل حسيرًا[1]

ومن شعر الرشيد في ثلاث جوار كنَّ له:

مَلَكَ الثَّلَاثُ الْآنِسَاتُ عِنَانِي وَحَلَلْنَ مِنْ قَلْبِي بِكُلِّ مَكَانِ

مَا لِي تُطَاوِعُنِي الْبَرِيَّةُ كُلُّهَا وَأُطِيعُهُنَّ، وَهُنَّ فِي عِصْيَانِي

مَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّ سُلْطَانَ الْهَوَى وَبِهِ قَوَيْنَ أَعَزُّ مِنْ سُلْطَانِي

وأما عن ذوق هـارون ونقده للشعر والأدب، فكان فقيهًا أديبًا شاعرًا حلو النظم ذواقًا، والروايات كثيرة عن فهمه للشعر وطول باعه فيه، دخل مرة العباس بن الأحنف على هـارون الرشيد، فقال له هـارون: أنشدني أرق بيت قالته العرب، فقال: قد أكثر الناس في بيت جميل، حيث يقول:

أَلَا لَيْتَنِي أَعْمَى أَصَمُّ تَقُودُنِي بُثَيْنَةُ لَا يَخْفَى عَلَيَّ كَلَامُهَا

قال له هـارون: أنت، والله، أرق منه، حيث تقول:

طَافَ الْهَوَى فِي عِبَادِ اللَّهِ كُلِّهِمْ حَتَّى إِذَا مَرَّ بِي مِنْ بَيْنِهِمْ وَقَفَا

قال العباس: أنت والله يا أمير المؤمنين أرق قولًا مني ومنه، حيث تقول:

أَمَا يَكْفِيكِ أَنَّكِ تَمْلِكِينِي وَأَنَّ النَّـاسَ كُلَّـهُـمْ عَبِيـدِي

وَأَنَّكِ لَوْ قَطَعْتِ يَدِي، وَرِجْلِي لَقُلْتُ مِنَ الْهَوَى أَحْسَنْتِ زِيدِي

فضحك الرشيد وأعجبه ذلك[2].

(1) السيوطي: تاريخ الخلفاء، 1/ 215.

(2) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، 16/ 16 – 17.

ودخل محمد بن ذؤيب العمَّاني الراجز على الرشيد فأنشده أرجوزة يصف فيها فرسًا شبَّه أذنيه بقلم محرّف، فقال:

كأنَّ أذنيه إذا تشوّفا قادمةً أو قلمًا محرّفا

فقال له الرشيد: «دَعْ «كأنَّ» وقُلْ: «تخال أذنيه إذا تشوفا»، حتى يستوي الإعراب»، وكان قد لحن العماني، ولم يعرف ولم يفطن له أهل المجلس، حتى قال له الرشيد ذلك فتعجبوا من علمه وفطنته[1].

ودخل عليه مرة الشاعر مسلم بن الوليد الأنصاري، وهو أول من أكثر من البديع وتبعه الشعراء فيه، وهو من أهل الكوفة، نزل بغداد، فأنشد الرشيد قوله:

أديرا عليّ الكأسَ لا تَشْربا قبلي ولا تَطْلُبا مِن عند قاتلتي ذَحْلي

هَلِ العيشُ إلا أن تَرُوح مَعَ الصَّبا وَتَغْدُو صريعَ الكأس والأَعْيُنِ النُّجْلِ

فلقّبه الرشيد بصريع الغواني، حتى صار لا يُعرف إلا به. ويقال: «إن الرشيد كتب شعره بماء الذهب»[2].

وقال الحسن بن فهم: كان الرشيد يقول: من أحب ما مدحت به إليَّ:

أبو أمين ومأمون ومؤتمن أكرم به والدًا برًّا وما ولدا[3]

وقال الرشيد للمفضَّل الضبيِّ: اذكر لى بيتًا جيد المعنى، يحتاج إلى مقارعة الفكر في استخراج خبيئه، ثمّ دعنى وإيّاه. فقال له المفضَّل: أتعرف بيتا أوَّله أعرابيٌّ فى شملته، هـابّ من نومته، كأنّما صدر عن ركب جرى في أجفانهم الوسن فركد، يستفزّهم بعنجهيّة البدو، وتعجرف الشّدو، وآخره مدنيّ رقيق، قد غذّى بماء العقيق؟

قال الرشيد: لا أعرفه، قال:هـو بيت جميل بن معمر:

(1) الصولي: أدب الكتاب، ص86. أبو هلال العسكري: ديوان المعاني، 1/ 36 – 37.

(2) ابن المعتز: طبقات الشعراء، ص235. الذهبي: تاريخ الإسلام، 4/ 1206.

(3) السيوطي: تاريخ الخلفاء، 1/ 217.

ألا أيّها الرّكب النيام ألاهـبُّوا

ثمّ أدركته رقّة المشوق، فقال:

أسائلكم:هـل يقتل الرَّجل الحبُّ؟

قال الرشيد: صدقت، فهل تعرف أنت الآن بيتًا أوَّله أكثم بن صيفيٍّ فى أصالة الرأي ونبل العظة، وآخره إبِّقراط في معرفته بالداء والدواء؟ قال المفضّل: قد هـوَّلت علىَّ، فليت شعري بأيِّ مهر تفترع عروس هـذا الخدر؟ قال: بإصغائك وإنصافك، وهو قول الحسن بن هـانيء:

دع عنك لومي فإنَّ اللَّوم إغراء وداوني بالتي كانت هـي الدَّاء[1]

وقد كان الرشيد لا يبخل عن أهل الأدب والشعر ويعطيهم عطاءً جزيلًا، دخل عليه منصور النمري يومًا، فمدحه بقصيدة منها:

مَا كُنْتُ أُوفِي شَبَابِي كُنْهَ غُرَّتِهِ حَتَّى انْقَضَى فَإِذَا الدُّنْيَا لَهُ تَبَعُ

إِنَّ الْمَكَارِمَ وَالْمَعْرُوفَ أَوْدِيَةٌ أَحَلَّكَ اللَّهُ مِنْهَا حَيْثُ تَجْتَمِعُ

فأجازه هـارون الرشيد بمائة ألف درهم، وهو القائل فيه:

جَعَلَ الْقُرْآنَ إِمَامَهُ وَدَلِيلَهُ لَمَّا تَخَيَّرَهُ الْقُرْآنُ إماما[2]

ولعمري قلَّما أجد مدحًا يوجَّه إلى عظيم أكثر انطباقًا على شخصية ممدوحه من قول أشجع السلمي في تصوير شخصية الرشيد، دخل على الرشيد بالقصر الأبيض بالرقة، وكان قد ضرب أعناق قوم في تلك الساعة، فقال يمدحه:

وعلى عَدُوِّك يا ابنَ عَمِّ محمدٍ رَصَدانِ ضَوْءُ الصبحِ والإظْلامُ

فإذا تنبَّه رُعْتَه وإذا غَفَا سَلَّتْ عليه سيوفَـك الأحْـلامُ

(1) ابن قتيبة الدينوري: الشعر والشعراء، 1/ 74 – 75.

(2) الذهبي: تاريخ الإسلام، 4/ 751.

فاهتز الرشيد وارتاح وقال:هـذا والله المدح الجيد والمعنى الصحيح، لا ما عللت به مسامعي هـذا اليوم – وكان أنشده في ذلك اليوم جماعة من الشعراء – ثم أنشده قصيدته التي على الجيم، وهي قوله:

ملك أبوه وأمه من نبعة منها سراج الأمة الوهاج

شربًا بمكة في ذرا بطحائها ماء النبوة ليس فيه مزاج

فلما سمع هـذين البيتين كاد يطير ارتياحًا ثم قال: يا أشجع، لقد دخلت إليَّ وأنت أثقل الناس على قلبي، وإنك لتخرج من عندي وأنت أحب الناس إليَّ. فقال له: فما الذي أكسبتني هـذه المنزلة؟ قال له: الغنى، فاسأل ما بدا لك. قال: ألف ألف درهم. قال الرشيد: ادفعوا إليه[1].

علاقة الرشيد بأبي نواس

ويجدر بنا ونحن نتناول الحديث عن الرشيد وعلاقته بالشعر والشعراء، أن نلقي الضوء حول علاقة الرشيد بالشاعر أبي نواس، فممَّا هـو معروف عن هـارون الرشيد حسن صلته بالشعراء وحرصه على مجالستهم، والاستماع إليهم، ولكنه رحمه الله يأبى أن يسمع منهم فاحش القول ورديء الشعر، ويرفض أن يكون في مجلسه من لا يرضي سيرته منهم، فقد أكثر الرشيد من تعزير أبي نواس الشاعر، وحبسه مرات عديدة، حتى لما ولي الأمين الخلافة بعد أبيه الرشيد وجد أبا نواس مسجونًا في حبس الرشيد مع الزنادقة، فأحضره وأطلقه وأطلق له مالًا شرط أن يتوب من آثامه.

ولذلك فإنه من المستنكر أن تذكر بعض كتب الأدب غير الموثوق بها كالأغاني وألف ليلة وليلة، عن صلة الرشيد بأبي نواس على النحو المعروض فيه من المجون والخلاعة، فإن هـذا من الافتراء والأكاذيب على الرشيد[2]، فلم يذكر

(1) ابن المعتز: طبقات الشعراء، ص25 – 251. ابن عساكر: تاريخ دمشق، 9/ 107 – 108.

(2) ابن كثير: البداية والنهاية، 14/ 104. أحمد القطان ومحمد طاهر الزين: هارون الرشيد الخليفة المظلوم، ص164.

الطبري وابن كثير وغيرهما من كبار المؤرخين والعلماء في تراجمهم للرشيد أو حياة أبي نواس من صلة بهذا النوع من اللهو والخلاعة، فكل ذلك من قبيل الكذب والافتراء، على أن هـذه الصلة الكبيرة بين الرشيد وأبي نواس كان لها حدود لا يتعداها الأخير منهما، قال الذهبي: "ولأبي نواس أخبار وأشعار رائقة في الغزل والخمور، وحظوة في أيام الرشيد والأمين"[1].

وجاء في مقدمة مختار الأغاني لابن منظور (ت 711هـ) الجزء الرابع تحت عنوان (كلمة حول أخبار أبي نواس)، ما يلي: "قسم من تاريخنا مصدره قليلو العلم ورقيقو الدين، الذين يطلقون فيضًا من الأكاذيب، ويختلقون ركامًا من الافتراءات،.. ويمر الزمن فيختفي القائل، وتنطمس المعالم، وتغيب القيم، فتختلط الأكاذيب والحقائق، وتتشابك حتى ليعسر على أكثر الناس أن يميز الرغوة من الصريح»، ويكفي هـذا للرد على الأصفهاني.

وقد اشتهر أبو نواس بالمجون حتى صار المجون علمًا عليه، وكأنما اختص به وحده بين أترابه، فإذا عثر على خبر في المجون ألصق به، وإذا اخترع أحد الماجنين حادثة، عزاها إليه حتى أنه ليترك من وقع المجون منه، لينسب إلى أبي نواس.

ومما يؤكد على النحل والوضع ورواية أخبار عن أشخاص - لا سيما هـارون الرشيد - ألصقت بهم إلصاقًا، أن شعرًا لأبي نواس افتراه أو بعضه قد نسب في الخبر لغيره، حيث نجد خبرًا لأبي نواس مع الرشيد، وهو في صفحة أخرى في الأغاني ليس لأبي نواس ولا مع الرشيد، وإنما يعزى هـناك لبشار بن برد مع المهدي.

وأخبار الرشيد مع أبي نواس في الأغاني ألصقت زورًا وبهتانًا وافتراءً على هـارون الرشيد، ومؤلف الأغاني مشكوك في أمانته، حتى إن ابن منظور في مختاراته جزم بأن أخبار الرشيد مع أبي نواس موضوعات لا تصح، وأن أبا نواس ما دخل على الرشيد قط. وهذا الرأي لا نأخذ به، فقد دخل أبو نواس على الرشيد

(1) الذهبي: سير أعلام النبلاء، 9/ 280.

كما يدخل غيره من الشعراء، مع التزام تام بحدود الشريعة، والأدب الكامل[1].

وأخبار مدح أبي نواس للرشيد كثيرة في كتب الأدب والتاريخ. وكان من مديح أبي نواس لهارون الرشيد، ما ذكره إسحاق الموصلي قال: قال أبو العتاهية لأبي نواس: البيت الذي مدحت به الرشيد لوددت أني كنت سبقتك به إليه:

قَدْ كنتُ خفتُك ثُمّ آمَنَنِي مِنْ أنْ أَخَافَكَ خَوْفُك اللَّهَ[2]

وكان هـارون الرشيد كثيرًا ما يتمثل بجميل أشعار أبي نواس، قال هـارون الرشيد: لو قيل للدنيا: صفى نفسك، وكانت ممّا تصف، لما عدت قول أبى نواس فيها:

ألا كلُّ حيٍّ هـالكُ، وابنُ هـالكٍ وذو نَسَب في الهالكين عريقِ

إذا امتحنَ الدُّنيا لبيب تكشَّفَت لَهُ عَنْ عدوٍ في ثياب صديقِ[3]

فما نسب إلى أبي نواس معظمه منحول، فمن باب أولى صلته بالرشيد، الذي عرفنا مجالسه كيف كانت، وثقافته ما مستواها.

وأما عن اللغة، فقد بلغت اللغة العربية الذروة في عهد الرشيد، لنمو الثقافة والحضارة في عهده، وقد كان هـارون ظلها الظليل، والمغدق على العلماء والشعراء والموسيقيين، وقد أخذت علوم العربية في عهده نهضة جديدة اقترنت بأسماء الأصمعي وأبي عبيدة وأبي زيد والفراء والكسائي، وهؤلاء جميعًا اتخذوا لغة البدو هـي المثل الأعلى والنموذج الرفيع، وكانوا دائمًا يقاومون لغة العامة في لحنهم، حتى أنكروا على الفراء أنه لحن بحضرة الرشيد، وأنه اعتذر عن ذلك بأن اللحن عند سكان المدن لازم لهم كالإعراب عند أهل البادية، وكان محببًا إليه أن يجالس النحاة ويستمع إلى جدلهم، وكان يقدر سلامة اللغة حق قدرها، ويدقق

(1) شوقي أبو خليل: هارون الرشيد أمير الخلفاء وأجل ملوك الدنيا، ص204 – 206. بتصرف.

(2) السيوطي: تاريخ الخلفاء، 1/ 2170 218. وقيل: قيلت هذه الأبيات للفضل بن الربيع، انظر الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 525.

(3) ابن قتيبة الدينوري: الشعر والشعراء، 2/ 805. ابن عبد ربه: العقد الفريد، 3/ 123.

فيما لا يفهمه[1].

من ذلك، قال الأصمعي: «دخلت على هـارون - ومجلسه حافل - فقال: يا أصمعي، ما أغفلك عنا، وأجفاك لحضرتنا! قلت: يا أمير المؤمنين، ما ألاقتني بلاد بعدك حتى أتيتك، فأمرني بالجلوس، فجلست، وسكت. فلما خرج الناس قال له: ما معنى: ما لاقتني أرض؟ قال: ما استقرت بي أرض، كما يقال: فلان لا يليق شيئًا أي: لا يستقر معه شيء، وقال له الرشيد: هـذا حسن، ولكن لا ينبغي أن تكلمني بين يدي الناس إلا بما أفهمه، فإذا خلوت فعلّمني، فإنه إما أن أسكت فيعلم الناس أني لا أفهم، وإما أن أجيب بغير صواب، فيعلم الناس أني لم أفهم. قال الأصمعي: فعلّمني أكثر مما علمته»[2].

وقد كان الرشيد دقيق الفهم للغة العربية ذا فصاحة وعلم وبصر بها، ومحبًّا إليه أن يعقد المناظرات بين العلماء، ويسمع كلامهم، اجتمع عنده سيبويه والكسائي، وتناظرا بحضرته في المسألة النحوية الشهيرة، المعروفة بالمسألة الزنبورية، وبحضرته أيضًا تناظر الكسائي مع المفضل الضبي والأصمعي وأبي محمد اليزيدى وأبي يوسف القاضي[3].

وقد حضر أهل اللغة عند الرشيد ذات يوم، وفيهم أبو يوسف صاحب أبي حنيفة، والكسائي يذكر النحو، فجعل أبو يوسف يذمُّ النحو ويقول: وما النحو؟، فقال له الكسائي وأراد أن يعلمه فضل النحو: أسالك عن مسألة في الفقه، قال: سل، قال: ما تقول في غلام لك قتل فاتهمت به رجلين فسألتهما عن أمره، فقال أحدهما: أنا قاتل غلامِك، وقال الآخر: أنا قاتل غلامَك، أيهما القاتل عندك؟ قال أبو يوسف: جميعًا، فقال له هـارون الرشيد: أخطأت - وكان له علم بالعربية - فاستحيا وقال: كيف ذلك؟

(1) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 6/ 177. أحمد أمين، هارون الرشيد، ص109.

(2) ابن عساكر: تاريخ دمشق، 73/ 3 - 9.

(3) الزجاجي: مجالس العلماء، ص9 - 10، ص30 - 36، ص195 - 196، ص257 - 261.

قال: الذي يؤخذ بقتل الغلام هـو الذي قال أنا قاتل غلامِك بالإضافة لأنه فعل ماض، وأما الذي قال أنا قاتل غلامَك بالنصب فلا يؤخذ لأنه مستقبل لم يكن بعد، كما قال الله عز وجل: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴾ [الكهف: 23]، فلولا أنَّ التنوين مستقبل ما جاز فيه غدا، فكان أبو يوسف بعد ذلك يمدح العربية والنحو[1].

وقيل: دخلت امرأة على هـارون الرشيد وعنده جماعة من وجوه أصحابه، فقالت: يا أمير المؤمنين: أقر الله عينك، وفرحك بما آتاك، وأتم سعدك، لقد حكمت فقسطت، فقال لها: من تكونين أيتها المرأة. فقالت: من آل برمك ممن قتلت رجالهم، وأخذت أموالهم، وسلبت نوالهم.

فقال: أما الرجال فقد مضى فيهم أمر الله، ونفذ فيهم قدره، وأما المال فمردود إليك، ثم التفت إلى الحاضرين من أصحابه، فقال: أتدرون ما قالت هـذه المرأة، فقالوا: ما نراها قالت إلا خيرًا. قال: ما أظنكم فهمتم ذلك، أما قولها: أقر الله عينك، أي أسكنها عن الحركة، وإذا سكنت العين عن الحركة عميت، وأما قولها: وفرَّحك بما آتاك، فأخذته من قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً ﴾ [الأنعام: 44]، وأما قولها: وأتم الله سعدك، فأخذته من قول الشاعر:

إذا تمّ أمر بدا نقصه ترقّب زوالًا إذا قيل: تم

وأما قولها: لقد حكمت فقسطت، فأخذته من قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: 15]، فتعجبوا من ذلك[2].

وكما اعتنى المهديِّ بتربية الرشيد فصار إلى ما نرى من العلم في الفقه والحديث واللغة والأدب والشعر، فضلًا عن مهارات القيادة والسياسة، فكذلك اعتنى الرشيد بأولاده، وخاصة الأمين والمأمون، فجاء لهم بكبار المؤدبين والعلماء، وكان أشهرهم الكسائي، جعله الرشيد مؤدبًا للأمين، ثم لما اتصل أبو

(1) أبو حيان التوحيدي: البصائر والذخائر، 5/ 203. ياقوت الحموي: معجم الأدباء، 4/ 1741.
(2) أبو الفتح الأبشيهي: المستطرف في كل فن مستطرف، ص53.

محمد اليزيدي بالرشيد – وكان ثقة، وهو أحد القراء الفصحاء العالمين بلغات العرب والنحو، وكان صدوقًا – فجعل ولده المأمون في حجره فكان يؤدبه، وكان اليزيدي يجلس في أيام الرشيد مع الكسائي في مجلس واحد ويقرئان الناس بقراءات القرآن، فأما الأمين فإن الرشيد أمر الكسائي أن يأخذ عليه بحرف حمزة، وأما المأمون فإن الرشيد أمر أبا محمد أن يأخذ عليه بحرف أبي عمرو بن العلاء[1].

وذكر عن الأصمعي أنه قال: دخلت على الرشيد وكنت قد غبت عنه بالبصرة حَولًا، فسلمت عليه بالخلافة فأومأ إلى بالجلوس قريبًا منه فجلست قليلًا ثم نهضت، فأومأ إلي أن اجلس فجلست، حتى خف الناس ثم قال لي: يا أصمعي ألا تحب أن ترى محمدًا وعبد الله بنيَّ؟

قلت: بلى يا أمير المؤمنين إني لأحب ذلك، وما أردت القصد إلا إليهما لأسلم عليهما، فقال: يكفي ذلك ثم قال: عليَّ بمحمد وعبد الله، فانطلق الرسول إليهما وقال أجيبا أمير المؤمنين فأقبلا كأنهما قمرا أفق، قد قاربا خطاهما ورميا ببصرهما الأرض، حتى وقفا على أبيهما، فسلما عليه بالخلافة، فأومأ إليهما بالجلوس، فجلس محمد عن يمينه وعبد الله عن يساره، ثم أمرني بمطارحتهما الأدب، فكنت لا ألقي عليهما شيئًا من فنون الأدب إلا أجابا فيه وأصابا، فقال: كيف ترى أدبهما؟ قلت: يا أمير المؤمنين ما رأيت مثلهما في ذكائهما وجودة فهمهما وذهنهما، فأطال الله تعالى بقاءهما، ورزق الأمة من رأفتهما ومعطفتهما فضمهما إلى صدره وسبقته عبرته فبكى حتى تحدرت دموعه على لحيته، ثم أذن لهما في القيام فنهضا حتى خرجا[2].

وكان من مؤدبي الأمين والمأمون علي بن المبارك الأحمر (ت: 194هـ، وقيل 207هـ)، وهو شيخ العربية، وتلميذ الكِسائي، وصيَّره الكسائي يعلم أولاد

(1) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 3/ 295، 6/ 183 – 184.

(2) أبو حنيفة الدينوري: الأخبار الطوال، ص387 – 388. المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 3/ 289 – 290. ورواية المسعودي عن الكسائي وليس الأصمعي.

الرشيد عوضًا عن نفسه[1]. ومنهم كذلك خلف الأحمر معلم الأصمعي ومعلم أهل البصرة (ت: 180هـ)، بعث إليه الرشيد في تأديب ولده محمد الأمين فقال: «يا أحمر، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه، وثمرة قلبه، فصَيَّر يدك عليه مبسوطَة، وطاعته لك واجبة، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين، أَقْرِئه القرآن، وعرِّفه الأخبار، وروِّه الأشعار، وعلمه السنن، وبصِّره بمواقع الكلام وبَدْئِه، وامْنعه من الضحك إلا في أوقاته، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه، ورَفْع مجالس القوَّاد إذا حضروا مجلسه، ولا تَمُرَّنَّ بك ساعة إلا وأنت مُغْتَنِم فائدة تفيده إياها، من غير أن تُحْزِنه، فتميت ذهنه، ولا تُمْعِن في مسامحته، فيستحلِيَ الفراغ ويأْلَفه، وقَوِّمْه ما استطعت بالقرب والملاينة، فإن أَبَاهُما فعليك بالشدة والغِلْظَة»[2].

(1) الذهبي: تاريخ الإسلام، 4/ 1171.

(2) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 3/ 291. ابن خلدون، المقدمة، 3/ 1119 - 1120.

obeikandl.com

سادسًا: الموسيقى في عهد هارون الرشيد

عرف العربي الترنم بالشعر، ولم يكن يدري أن هـذا اللون من ألوان الموسيقى صناعة تخضع لقانون معين، فاستمر هـكذا يغني ويشرب الخمر، ويتعلق بالحب، ويكلف بالصيد والميسر حتى استطاعت القيان التي استقدمت من بلاد العجم والروم بآلاتهن الموسيقية الفارسية والرومية أن يؤثرن في الموسيقى العربية تأثيرًا كبيرًا.

وقد عرف العرب في الجاهلية وصدر الإسلام من الآلات الوترية (المزهر) وهو عود ذو وجه من الرق (والعود) ذا الوجه الخشبي (والجنك) أو الصنج (الهارب) (والمعزف) (والموتر)، ومن آلات النفخ المزمار، والقصبة أو القُصَّابة، والشبَّابة، والصُّور، والناي. ومن آلات النقر: الطبل، والدف، والقضيب - لبيان الميزان أو الإيقاع - والصنوج والجلاجل، والمربع والمجنب!!

وأحسب أن عصر ابتداء النهضة الحق ابتدأ في خلافة علي رضي الله عنه. ولعل حبه للشعر وهو لون من ألوان (الفن) أكبر حافز. على أن هـذه النهضة لم تؤت ثمرها اليانع إلا في الدولة الأموية عندما اتسعت الفتوحات شرقًا وغربًا. وقد ابتدئ في وضع الألحان العربية في هـذا العصر على إيقاعات متعددة، وورد في غنائه ذكر إيقاعات (الثقيل) الأول و(الثقيل) الثاني، وخفيف الثقيل، والهزج، والرمل، وقد بلغ من اهتمام الأمراء والحكام بالموسيقى أن الخليفة عبد الملك بن مروان نفسه كان موسيقيًا وملحنًا. وقد اشترى يزيد بن عبد الملك (حبابة) المغنية بأربعة آلاف دينار مع أنها كانت دميمة متهدمة، وكان الوليد بن يزيد عالمًا بصناعة الألحان عازفًا بالعود موقعًا بالطبل والدف. وفي العصر الأموي ابتدأت حركة التأليف الموسيقي فوضع يونس الكاتب (كتاب النغم) و(كيان القيان).

أما في العصر العباسي ذلك العصر الذهبي للموسيقى والأدب والشعر فقد سمت فيه الموسيقى سموًا عظيمًا، وارتفعت إلى ذروة المجد، وزادت مقاماتها وطرائق إيقاعها حتى تعددت في اللحن الواحد وكثرت الآلات وتنوعت وكثر استعمالها، وأصبح العربي يفخر بأنه موسيقي حتى أن أبناء النبلاء انخرطوا في سلكها، فكان منهم ابن جامع القرشي. بل زاد اهتمامهم إلى حد الاعتراف كإبراهيم بن المهدي أخو هـارون الرشيد[1]!

وقد دخلت الموسيقى مع سائر الفنون والآداب عصرها الذهبي في عهد هـارون الرشيد، الذي أصبح اسمه يقترن بها، في الفكر العربي والعالمي دون استثناء، بالأمجاد العربية في الفنون والآداب والتي صورت أحيانًا كالأساطير، حتى كأنك تقرأ كتاب الأغاني يخيل إليك أنه لم يكن في عصر الرشيد إلا الغناء والمغنيون والمغنيات، وهذا ليس عجبًا؛ لأن أبا الفرج الأصفهاني مزج في كتابه الأغاني بين الموسيقى والأدب، فمن خلال الموسيقى جمع الأصوات المائة التي اختارها المغنون للرشيد، والأصوات بلغة عصرنا هـي الألحان، ومن خلال الأدب حشد أبو الفرج في كتابه استطرادًا من النص الشعري الملحن اسم مغنيه وقائله وأخباره وأشعاره وبيئته وثقافته وصلاته بالناس وصورة عصره، ووصف مجتمعه إلى غير ذلك.

فقد أمر هـارون الرشيد إسحاق الموصلي، وإسماعيل بن جامع، وفليح ابن أبي العوراء، أن يختاروا له من الألحان العربية مائة صوت فصنعوا. والواقع أن الرشيد حين أمر المغنين بأن يختاروا له مائة صوت، أمرهم بأن يختاروا عشرة منها فاختاروها، ثم أمرهم أن يختاروا أفضل ثلاثة منها فاختاروها. ولكن أبا الفرج في "أغانيه" يستفتح عمله بذكر الأصوات الثلاثة، ثم لا يلبث أن ينطلق منها صوتًا بعد صوت حتى يتم المائة إحصاءً، أو بعبارة أخرى حتى يتمها تسعة وتسعين، وهي

(1) محمد السيد المويلحي: الموسيقى في الإسلام، مجلة الرسالة، العدد 297، بتاريخ: 13 مارس 1939م.

عدد الأصوات الحقيقية التي سجلها[1].

ولعل مما يدل على قيمة الغناء أن الجارية إذا كانت مغنية قُوِّمت تقويمًا ممتازًا؛ فهم يذكرون أن جارية عُرضت بثلاثمائة دينار، فلما علمها إبراهيم بن المهدي الغناء عُرض في ثمنها ثلاثة آلاف دينار، وقد بيعت عريب المغنية بخمسة آلاف دينار، وعلم دحمان جارية اشتراها بمائتي دينار فباعها بعشرة آلاف دينار، واشترى الرشيد من إبراهيم الموصلي جارية بستة وثلاثين ألف دينار، وكان في داره ثمانون جارية يعلمهن فن الغناء، وأغدق الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة العطايا على هـؤلاء المغنين وأسرفوا في ذلك إسرافًا شديدًا، ويكفي أن نذكر ما يقال من أن إبراهيم الموصلي صار إليه أربعة وعشرون ألف ألف درهم، سوى أرزاقه الجارية وهي عشرة آلاف درهم في كل شهر[2].

ومن أشهر الموسيقيين - في عصر هـارون الرشيد - إبراهيم الموصلي، وإسحاق الموصلي، وفليح بن أبي العوراء، ويحيى المكي، وحكم الوادي، وزلزل، ومخارق، وبذل المغنية، وابن جامع، وعلويَّة، وزرياب الذي وفد إلى الأندلس 206هـ.

وقد بلغ من حب هـارون للموسيقى أن شجع تلك الموهبة في أخيهِ لأبيهِ، الشاب إبراهيم بن المهدي؛ لأن إبراهيم كان له صوت غاية في القوة يبلغ مداه ثمان طبقات. وإن الزمن ليتضاءل في خيالنا وتضيق دائرته إلى أقصى حد عندما نسمع أنه قام بحركة ابتداعية في الموسيقى العربية مضادة للنزعة الاتباعية نزعة إسحاق بن إبراهيم الموصلي. وكان المأمون يقول عنه: "أنه لم يغنِّ لي قط إلا شعرت بأني قد اتسع ملكي"[3].

(1) مصطفى الشكعة: مناهج التأليف عند العلماء العرب، الناشر: دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشرة آب/ أغسطس 2004م، ص265 - 266. بتصرف.

(2) شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ص61.

(3) ول ديورانت: قصة الحضارة، 13/ 259.

وقد فاق هـارون الرشيد الخلفاء العباسيين في ولوعه بالغناء والموسيقى، حيث جعل المغنيين مراتب وطبقات، فكان إبراهيم الموصلي، وإسماعيل أبو القاسم بن جامع، وزلزل منصور الضارب في الطبقة الأولى وكان زلزل يضرب، ويغني هـذان عليه. والطبقة الثانية: سليم بن سلام أبو عبيد الله الكوفي، وعمرو الغزال ومن أشبههما. والطبقة الثالثة: أصحاب المعازف والونج والطنابير.

وعلى قدر ذلك كانت تخرج جوائزهم وصلاتهم. وكان إذا وصل واحدًا من الطبقة الأولى بالمال الكثير الخطير، جعل لصاحبه اللذين معه في الطبقة، نصيبًا منه، وجعل للطبقتين اللتين تليانه منه أيضًا نصيبًا. وإذا وصل أحدًا من الطبقتين الأخريين بصلة، لم يقبل واحد من الطبقة العالية منه درهمًا، ولا يجتريء أن يعرض ذلك عليه. قال: فسأل الرشيد يومًا برصوما الزامر، فقال له: يا إسحاق! ما تقول في ابن جامع؟ فحرك رأسه، وقال: خمر قطربل، يعقل الرجل، ويذهب العقل. قال: فما تقول في إبراهيم الموصلي؟ قال: بستان فيه خوخ وكمثرى وتفاح وشوك وخرنوب. قال: فما تقول في سليم بن سلام؟ فقال: ما أحسن خضابه! قال: فما تقول في عمرو الغزال؟ قال: ما أحسن بنانه! قال: وكان منصور زلزل من أحسن وأحذق من برأ الله بالجس؛ فكان إذا جس العود، فلو سمعه الأحنف ومن تحالم في دهره كله، لم يملك نفسه حتى يطرب[1].

وكان هـارون الرشيد يجزل العطاء للمغنيين والموسيقيين، فقد غنى رجل بحضرة الرشيد أبيات، فاستخف هـارون الرشيد الطرب، فأمر له بمائة ألف درهم. ودخل عليه إسحاق الموصلي مرة فأنشده أبيات منها:

عطائي عطاءُ المُكثرينَ تكرُّمًا ... ومالي كما قد تعلمين قليل

وكيف أخاف الفقر أو أحرم الغنى ... ورأيُ أمير المؤمنين جميلُ

(1) الجاحظ: التاج في أخلاق الملوك، ص35 - 37.

فقال الرشيد: لا كيف إن شاء اللَّه. يا فَضْلُ، أَعْطِهِ مائة ألفَ دِرْهَمٍ. لله دَرُّ أبياتٍ تأتينا بِهَا، ما أجودَ أُصولها، وأحسن فُصولها. فقال الموصلي: يا أميرَ المؤمنين كلامُك أحسن من شِعْرِي. فقال: يا فضل أعطه مائة ألف أخرى[1].

إشكاليات وأجوبة

وقد يتبادر إلى ذهن القارئ بعضًا من الإشكاليات المتعلقة بهذا الباب، والتي منها، كيف كان الغناء في زمن هـارون الرشيد؟ وكيف تستقيم شخصية الخليفة العابد الزاهد مع الخمر والمجون والخلاعة والرقص؟

وهذا الإشكال أجاب عنه ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة، وقطع فيه بعد حديثه عن زَلْزَلْ مغني الرشيد، بقوله: "وفيها (سنة 174هـ) توفي منصور مولى عيسى بن جعفر بن منصور، وكان منصورهـذا يلقب بزَلْزَلْ، وكان مغنيًا يضرب بغنائه وضربه بالعود المثل، وكان الغناء يوم ذاك غير الموسيقى الآن، وإنما كانت زخمات عددية وأصوات مركبة في أنغام معروفة، وهو نوع من إنشاد زماننا هـذا على الضروب لإنشاد المداح والوعاظ. وقد أوضحنا ذلك في غير هـذا المحل في مصنف على حدته وبيَّنا فيه الفرق بينه وبين الموسيقى"[2].

وأما بخصوص سماع الرشيد الأغاني من مغنيه الموصلي وغيره، فلم يكن بفحش الكلام ولا سيِّء العبارة، فقد كانوا يتمتعون بكريم الأخلاق وجميل الصفات، قال ابن خلكان عن إسحاق الموصلي: "كتب الحديث عن سفيان بن عينية ومالك بن أنس وهشيم بن بشير وأبي معاوية الضرير، وأخذ الأدب عن الأصمعي وأبي عبيدة، وبرع في علم الغناء فغلب عليه ونسب إليه. وكان الخلفاء يكرمونه ويقربونه، وكان المأمون يقول: لولا ما سبق لإسحاق على ألسنة الناس واشتهر بالغناء لوليته القضاء، فإنه أولى وأعف وأصدق وأكثر دينًا وأمانة من هـؤلاء

(1) الذهبي: تاريخ الإسلام، 5/ 791.

(2) . ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، 2/ 78.

القضاة، ولكنه اشتهر بالغناء وغلب على جميع علومه، مع أنه أصغرها عنده، ولم يكن له فيه نظير"[1]. فلم يكن الموصلي وزملاؤه ليصدر عنهم أمام الخليفة ما يخالف العربية والشريعة والعرف، بل كانوا يصحبون الرشيد في حجاته وصلواته.

وأما عن شرب الخمر فقد قال ابن خلدون رحمه الله: "وأما ما تموِّه له الحكاية من معاقرة الرشيد الخمر واقتران سكره بسكر النّدمان فحاشا الله ما علمنا عليه من سوء، وأين هـذا من حال الرّشيد وقيامه بما يجب لمنصب الخلافة من الدين والعدالة، وما كان عليه من صحابة العلماء والأولياء، ومحاوراته للفضيل بن عياض وابن السّماك والعمري، ومكاتبته سفيان الثوري، وبكائه من مواعظهم، ودعائه بمكة في طوافه، وما كان عليه من العبادة والمحافظة على أوقات الصّلوات وشهود الصّبح لأوّل وقتها".

وبعد أن ساق ابن خلدون قصة الرشيد مع طبيبه جبرائيل بن بختيشوع الذي وضع الخمر له يومًا في الطعام، ففطن له الرشيد، ووبَّخه، يقول جازمًا بعفة الرشيد: "وتبين من ذلك أن حال الرشيد في اجتناب الخمر كانت معروفة عند بطانته وأهل مائدته ولقد ثبت عنه أنه عهد بحبس أبي نواس لما بلغه من انهماكه في المعاقرة حتّى تاب وأقلع، وإمَّا كان الرشيد يشرب نبيذ التمر على مذهب أهل العراق (يقصد به مذهب أبي حنيفة) وفتاويهم فيها معروفة، وأما الخمر الصِّرف فلا سبيل إلى اتّهامه بها ولا تقليد الأخبار الواهية فيها[2]، فلم يكن الرجل بحيث يواقع محرَّما من أكبر الكبائر عند أهل الملة، ولقد كان أولئك القوم كلهم بمنحاة من ارتكاب السرف والترف في ملابسهم وزينتهم وسائر متناولاتهم لما كانوا عليه من خشونة البداوة وسذاجة الدين التي لم يفارقوها بعد، فما ظنُّك بما يخرج عن الإباحة إلى الحظر وعن الحلَّة إلى الحرمة"[3]. وهو عين ما يؤكده الجاحظ بنفي معاقرة الرشيد

(1) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 1/ 201 – 205. الذهبي: سير أعلام النبلاء، 11/ 118 – 121.

(2) انظر الفرق بين الخمر ونبيذ التمر في: السيد سابق: فقه السنة، 2/ 376 – 378.

(3) ابن خلدون: المقدمة، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، 1/ 304 – 306.

الخمر، بقوله: "ومن خبرك أنه رآه قط وهو يشرب إلا الماء، فكذبه، وكان لا يحضر شربه إلا خاص جواريه"[1]. وما صرَّح به ابن حزم بقوله: "أراه كان يشرب النبيذ المختلف فيه، لا الخمر المتفق على حرمتها"[2].

وأما عن شيوع حفلات الرقص والمجون والخلاعة، فإن سيرة الرشيد وطبيعة العصر، وحاشية الخليفة من كبار علماء الأمة، أمثال: القاضي عياض وابن المبارك والشافعي والقاضي أبي يوسف ومحمد بن الحسن وأبو معاوية الضرير وابن السماك الواعظ، تأبى ذلك كله وتكذبه.

obeikandl.com

(1) الجاحظ: التاج في أخلاق الملوك، ص35.

(2) الذهبي: سير أعلام النبلاء، 9/ 290.

سابعًا: اهتمام هارون الرشيد بعلوم الحياة

لم يكن اهتمام هـارون الرشيد منصبًا كله على العلوم الشرعية من علوم التفسير والحديث والفقه واللغة، بل انصب اهتمامه كذلك على علوم الحياة أو ما تعرف بالعلوم التجريبية، وأولى لها اهتمامًا عظيمًا، حتى نبغ في عهده علماء أضاءوا الدنيا كلها بعلمهم وابتكاراتهم وإسهاماتهم العلمية الفريدة في تاريخ البشرية، وخاصة في علوم الطب والكيمياء والهندسة الميكانيكية أو علم الإلكترونيات.

لقد بلغ التقدم في علوم الحياة في عصر الرشيد ذروةً سامقةً، في حين كان الغرب يعيش أشدَّ عصوره تخلُّفًا، في حين برز عدد كبير من علماء الحياة في عهد هـارون الرشيد، بفضل حَثِّه على العلم، وتقديره للعلماء أيًا كانت دياناتهم، وإنزالهم منازلهم، وتشجيع المتفوقين من الناشئة.

ضمت دولة الرشيد أعلام العلم والاختراع والحضارة، الذين ما زالت تفخر بهم البشرية، فقد عاش في رعاية دولته جابر بن حيان، مبتكر علم الكيمياء (103هـ - 200هـ)، والخوارزمي الرياضي الشهير، مبتكر علم الجبر وكان بارزًا في علوم الفلك والجغرافيا، وبرز في زمن خلافة المأمون (عاش بين سنتي 164هـ - 232هـ)، والكندي فيلسوف العرب والإسلام، كان على علاقة وطيدة بالمأمون والمعتصم والمتوكل (185هـ - 256هـ)، وأولاد موسى بن شاكر (محمد وأحمد والحسن) وهم أول فريق علمي في التاريخ، وكانوا على صلة وثيقة بالمأمون، وكانوا مبرزين في العلوم الرياضية والفلكية والميكانيكية والهندسية والجغرافية، توفي أكبرهم أبو عبد الله محمد سنة 259هـ، وغيرهم من العلماء الكثير، ممن كان لإسهاماتهم عظيم الأثر في الحضارات العالمية، فمنهم من عاش في كنف الرشيد،

ومنهم من هـيَّأ له الرشيد كنوز العلم والمعرفة في بيت الحكمة، وعلى كلٍّ فللرشيد على هـؤلاء جميعًا الفضل والمنَّة.

وقد بلغ الطب في عهد هـارون الرشيد مبلغًا عظيمًا وتقدمًا كبيرًا لم يُرَ مثله من قبل، ولم يدركه إلا ما كان في عهد ولده المأمون، حيث اجتمع له كبار الأطباء في مشرق الأرض ومغربها، من هـؤلاء: بختيشوع وولده جبرائيل بن بختيشوع، طبيب الرشيد الخاص، الذي تذكر كتب الطب أنه جمع ثروة عظيمة من الاشتغال بالطب، ومنهم ماسويه وولده يوحنا بن ماسويه، والطبيب الهندي الشهير منكه.

ولاعتناء الرشيد بأمر الطب والأطباء فقد أمر طبيبه جبريل بن بختيشوع أن ينشئ بيمارستانًا في بغداد، فأنشأه جبريل ورشّح له ماسويه الخوزي، من أطباء جنديسابور، وتولى جبريل رعايته[1]. وكان للبرامكة وزراء الرشيد عناية خاصة بالطب كذلك، وكان لهم بيمارستانات في بغداد وغيرها، وكان ابن دهن الهندي رئيسًا لبيمارستان البرامكة في بغداد[2].

ومما أُثِرَ عن الرشيد رحمه الله أنه كان يجمع الأطباء، ويستشيرهم في أمور عديدة، فمن ذلك ما ذكره ابن عبد ربه في العقد الفريد: "جمع الرشيد من الأطباء أربعة: عراقيًا، وروميًا، وهنديًا، ويونانيًا .فقال: ليصف لي كل واحد منكم الدواء الذي لا داء معه، فقال العراقي: الدواء الذي لا داء معه حب الرشاد الأبيض، وقال الهندي: الإهليلج الأسود، وقال الرومي: الماء الحار، وقال اليوناني – وكان أطبهم – حب الرشاد الأبيض يولد الرطوبة، والماء الحار يرخي المعدة، والإهليلج الأسود يرق المعدة، لكن الدواء الذي لا داء معه أن تقعد على الطعام وأنت تشتهيه، وتقوم عنه وأنت تشتهيه، قال: صدقت"[3].

(1) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، 1/ 245 – 246.

(2) ابن النديم: الفهرست، 1/ 303 – 304. أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات في الإسلام، ص116.

(3) ابن عبد ربه: العقد الفريد، 8/ 19 – 20. راغب السرجاني: العلم وبناء الأمم، ص 371 – 372. بتصرف.

ولعلنا نبرز مدى اهتمام الرشيد بعلوم الحياة وعنايته بهم، من خلال ذكر أشهر العلماء التجريبيين في عصره وأشهر أعمالهم، وذلك على الاختصار، كما نبين أشهر الاكتشافات العلمية التي أذهلت العالم أجمع.

١- جابر بن حيان

هو جابر بن حيان الأزدي (103 - 200هـ/ 721 - 815م)، مؤسس علم الكيمياء التجريبي، وأول من استخلص معلوماته الكيميائية من خلال التجارب والاستقراء والاستنتاج العلمي، وكان غزير الإنتاج والاكتشافات، حتى إن الكيمياء اقترنت باسمه فقالوا: "كيمياء جابر"، و"الكيمياء لجابر"، وكذلك: "صنعة جابر". كما أُطلق عليه أيضًا "شيخ الكيميائيين" و"أبو الكيمياء".

وقد ألف كتبًا كثيرة تُرجم الكثير منها إلى اللاتينيَّة، وظلَّت المرجع الأوفى للكيمياء زُهاء ألف عام، وقد اشتملت على كثير من المركَّبات الكيميائية التي لم تكن معروفة من قبل، وهو الأمر الذي جعل مؤلَّفاته موضع دراسة مشاهير علماء الغرب، أمثال: كوب، وبرثولية، وكراوس، وهولميارد الذي أنصفه ووضعه في القمَّة، وبدَّد الشكوك التي أثارها حوله العلماء المغرضون، وكذا سارتون الذي أرَّخ به لحِقبة من الزمن في تاريخ الحضارة الإسلاميَّة[1]. وقد أشاد الكيميائي الفرنسي برتلو بدور جابر وإسهاماته بقوله: "لجابر في الكيمياء ما لأرسطو في المنطق"[2].

إنجازاته

هو أول من حضَّر حمض الكبريتيك بالتقطير من الشَّب، وحضَّر أكسيد الزئبق، وحمض النتريك، أي ماء الفضة، وكان يسميه الماء المحلل أو ماء النار، وحضر حمض الكلوريدريك المسمَّى بروح الملح، وهو أول من اكتشف الصودا الكاوية،

(1) عبد الحليم منتصر: تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه، ص106. راغب السرجاني: العلم وبناء الأمم، ص522 - 527. بتصرف.

(2) فاضل أحمد الطائي: موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، علم الكيمياء عند العرب، 1/ 275.

وأول من استخرج نترات الفضة وقد سمّاها حجر جهنم، وثاني كلوريد الزئبق (السليماني)، وحمض النتروهيدروكلوريك (الماء الملكي)، وسُمِّي كذلك لأنه يذيب الذهب ملك المعادن.

وهو أول من لاحظ رواسب كلوريد الفضة عند إضافة ملح الطعام إلى نترات الفضة، كما استخدم الشب في تثبيت الأصباغ في الأقمشة، وحضَّر بعض المواد التي تمنع الثياب من البلل، وهذه المواد هـي أملاح الألومنيوم المشتقة من الأحماض العضوية ذات الأجزاء الهيدروكربونية، ومن استنتاجاته أن اللهب يُكسِب النحاس اللون الأزرق، بينما يكسب النحاس اللهب لونًا أخضر. وهو أول من فصل الذهب عن الفضة بالحل بوساطة الحمض، وشرح بالتفصيل عملية تحضير الزرنيخ، وتنقية المعادن، وصبغ الأقمشة. ويُعزَى إليه أنه أولُ من استعمل الميزان الحساس والأوزان متناهية الدقة في تجاربه المخبرية[1].

ولجابر بن حيان مجموعة من الكتب، منها: (الخواص الكبير) (أسرار الكيمياء) و(علم الهيئة) و(أصول الكيمياء) و(المكتسب). ويذكر أن جابر بن حيان على علاقة قوية بالبرامكة وخاصة جعفر بن يحيى البرمكي، مما وفر له البيئة العلمية المناسبة التي أنتجت هـذه الإبداعات العلمية الفريدة[2].

2 - ساعة الرشيد.. ابتكار علمي فريد

لقد أبدع علماء الحضارة الإسلامية عددًا من الاختراعات الميكانيكية الصعبة التي لم يسبق لها مثيل، وقد كان للجو العلمي الذي أطفاه هـارون الرشيد على دولته وتشجيعه للعلم والتقدم أثر كبير في إعمال العقول لتبدع في الابتكار، ومن هـذه الابتكارات العلمية الفريدة في عصر الرشيد ما ذكره سيديو في كتاب تاريخ العرب أن الخليفة العباسي هـارون الرشيد (170هـ / 193هـ) أرسل هـديةً

(1) راغب السرجاني: العلم وبناء الأمم، ص 524 - 525. بتصرف.
(2) الزركلي: الأعلام، 2/ 103.

عجيبةً إلى صديقه شارلمان ملك الفرنجة (فرنسا)، «وكانت الهديةُ عبارةً عن ساعة ضخمة بارتفاع حائط الغرفة، تتحرَّك بواسطة قوَّة مائية، وعند تمام كل ساعة يسقط منها عددٌ مُعَيَّنٌ من الكرات المعدنية بعضها إثْرَ بعضٍ، بعددِ الساعات فوق قاعدة نحاسية ضخمة، فيُسْمَعُ لها رنين موسيقيٌّ، يُسمَع دويُّه في أنحاء القصر، وفي نفس الوقت يُفتح بابٌ من الأبواب الاثني عشر المؤدِّية إلى داخل الساعة، ويَخرج منها فارسٌ يدور حول الساعة، ثم يعود إلى حيث خرج، فإذا حانت الساعة الثانية عشرة يخرج من الأبواب اثنا عشر فارسًا مرةً واحدةً، ويدورون دورةً كاملةً ثم يعودون فيدخلون من الأبواب فتُغْلَقُ خلفهم».

وهذا هـو الوصف الذي جاء في المراجع الأجنبية والعربية عن تلك الساعة التي كانت تُعَدُّ وقتئذٍ أعجوبةَ الفنِّ، وأثارت دهشة المَلِكِ وحاشيته، ولكنَّ رهبان القصر اعتقدوا أنَّ في داخل الساعةِ شيطانًا يُحَرِّكها، فتربَّصُوا به ليلًا، وأحضروا البُلَط وانهالوا عليها تحطيمًا، إلاَّ أنهم لم يجدوا بداخلها شيئًا[1].

وهذه الساعة لم يرد فيها وصف في المراجع العربية والإسلامية، غير ما نقلته المراجع العربية عن الكتب اللاتينية، وقد استنتج غير واحد من هـؤلاء المؤرخين الغربيين على مدى الرقيّ الحضاري الذي وصلت إليه الحضارة الإسلامية في ذلك الوقت، يقول ول ديورانت: "وكان العرب على جانب كبير من المهرة الآلية الفنية، وشاهد ذلك أن الساعة المائية التي أهداها هـارون الرشيد إلى شارلمان قد صُنعت من الجلد والنحاس الأصفر المنقوش. وكانت تدل على الوقت بفرسان من المعدن يفتحون كل ساعة بابًا يسقط منه العدد المطلوب من الكرات على صنجة، ثم ينسحبون ويغلقون الباب"[2].

(1) راغب السرجاني: ماذا قدم المسلمون للعالم، 2/ 614 – 615.

(2) ول ديورانت: قصة الحضارة، 13/ 108.

3 - بختيشوع الطبيب وابنه جبرائيل بن بختيشوع

وَمعنى بختيشوع عبد الْمَسِيح لِأَن فِي اللُّغَة السريانية البخت العَبْد ويشوع عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَام، وكان بختيشوع بن جورجيس يلْحق بِأَبِيهِ فِي مَعْرفَته بصناعة الطِّبّ ومزاولته لأعمالها، وخدم هـارون الرشيد وتميز فِي أَيَّامه، وكان أول لقاء الرشيد به سنة 171هـ عندما مرض الرشيد بصداع شديد، فأشار عليه يحيى البرمكي ببختيشوع كبير أطباء جنديسابور، فلما مثّل بين يديه، جاء له الرشيد ببول حمار ليختبر ذكاءه وعلمه، وقال له: مَا ترى أَن نطعم صَاحب هـذَا المَاء؟!، فقال بختيشوع: شَعِيرًا جيدًا. فَضَحِك الرشيد ضحكًا شَدِيدًا، وَأمر فَخلع عَلَيْهِ خلعة حَسَنَة جليلة، ووهب لَهُ مَالًا وافرًا، وجعله رئيس الأطباء كلهم. ولبختيشوع من الكتب كناش مختصر، وكتاب التذكرة ألفه لولده جبرائيل.

وأما جبرائيل بن بختيشوع فكان مَشْهُورًا بِالْفَضْلِ جيد التَّصَرُّف فِي المداواة، عالي الهمة سعيد الْجد حظيًّا عِنْد الْخُلَفَاء رفيع الْمنزلَة عِنْدهم كثيري الإحسان إليه، وَحصل من جهتهم من الأموال مَا لم يحصله غَيره من الأطباء، وكان ذكيًّا فطنًا، وفي سنة 175هـ مرضت جارية للرشيد فلما قدم جبرائيل بين يدي الرشيد، قال له: مَا اسْمك ؟، قَالَ: جِبْرَائِيل، قَالَ لَهُ: أَي شَيْء تعرف من الطِّبّ ؟، فَقَالَ: أبرد الْحَار وأسخن الْبَارِد وأرطب الْيَابِس وأيبس الرطب الْخَارِج عَن الطَّبْع، فَضَحِك الرشيد، وَقَالَ هـذَا غَايَة مَا يحْتَاج إِلَيْهِ فِي صناعَة الطِّبّ. ولما برأت الجارية على يديه من علتها أمر له الرشيد بخمسمائة ألف درهم، وأحبه وَجعله رَئِيسًا على جَمِيع بعد أبيه.

وقد بلغ من شدة حب هـارون الرشيد لجبرائيل بن بختيشوع أنه كان يتمنى لو أسلم، فقد حج جبرائيل مع الرشيد مرة، فقال الرشيد له: يَا جِبْرَائِيل علمت مرتبتك عِنْدِي؟، قال: يَا سَيِّدي وَكَيف لَا أعلم. قال له: دَعَوْت لَك وَالله فِي الْموقف دُعَاء كثيرًا. ثمَّ الْتفت إِلَى بني هـاشم فَقَالَ: عَسى أنكرتم قولي لَهُ. فَقَالُوا يَا سيدنَا ذمِّي. فَقَالَ: نعم، وَلَكِن صَلَاح بدني وقوامه بِهِ، وَصَلَاح الْمُسلمين بِي. فصلاحهم

بصلاحه وبقائه. فَقَالُوا: صدقت يا أمير المؤمنين.

وكان لجبرائيل مكانة خاصة عند الرشيد، حَتَّى أَن الرشيد قال لأصحابه: "كل من كَانَت لَهُ إِلَيّ حَاجَة، فليخاطب بهَا جِبْرَائِيل؛ لِأَنِّي أفعل كل مَا يسألني فِيهِ ويطلبه مني"، فَكَانَ القواد يقصدونه فِي كل أُمُورهم. وقد حصل لجبرائيل من الأموال ما لم يجمعه غيره من الأطباء، وله من الكتب: المدخل إلى صناعة المنطق، كتاب في الباه، رسالة مختصرة فِي الطِّبّ، وكناشه[1].

4 - منكه الهندي

وهو من أطباء الهند المشهورين، يقول ابن أبي أصيبعة: "كان عالمًا بصناعة الطب، حسن المعالجة، لطيف التدبير، فيلسوف من جملة المشار إليهم في علوم الهند، متقنًا للغة الهند ولغة الفرس، وهو الذي نقل كتاب شاتاق الهندي في السموم من اللغة الهندية إلى الفارسي، وسافر من الهند إلى العراق في أيام هـارون الرشيد، واجتمع به وداواه، وجدت في بعض الكتب أن منكة الهندي كان في جملة إسحاق بن سليمان بن علي الهاشمي، وكان ينقل من اللغة الهندية إلى الفارسية والعربية، ونقلت من كتاب أخبار الخلفاء والبرامكة أن الرشيد اعتل علة صعبة فعالجه الأطباء فلم يجد من علته إفاقة، فقال له أبو عمر الأعجمي: بالهند طبيب يقال له منكة، وهو أحد عبادهم وفلاسفتهم فلو بعث إليه أمير المؤمنين فلعل الله أن يهب له الشفاء على يده، قال: فوجه الرشيد من حمله ووصله بصلة تعينه على سفره، فقدم وعالج الرشيد فبرأ من علته بعلاجه، فأجرى عليه رزقًا واسعًا وأموالًا كافية"[2].

(1) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، 1/ 186 - 201. بتصرف.

(2) السابق: 1/ 375.

سابعًا: الترجمة في عهد هارون الرشيد

شهدت حركة الترجمة رواجًا كبيرًا في العصر العباسي الأول نتيجة لتشجيع الخلفاء وبذلهم الأموال الطائلة لذلك، وقد كانت همة هارون الرشيد مصروفة إلى ترجمة الكتب سواء كتب الفلاسفة من اليونان وغيرهم، أو كتب الأطباء المشهورين، أو غيرها من فروع العلم والمعرفة، ومن أجل ذلك عمد هارون الرشيد إلى بيت الحكمة وجعل فيه المترجمون والنساخ وأجرى عليهم الأرزاق.

وقد عهد الرشيد بترجمة الكتب من اليونانية إلى العربية، إلى العالم المسيحي النسطوري: يحيى (يوحنا) بن ماسويه. كما اشتملت (خزانة الحكمة) على بعض كتب التراث الفارسي، والتي عهد الرشيد بترجمتها من الفارسية إلى العربية إلى الفضل بن نوبخت. وقد عهد الرشيد إلى يوحنا بن ماسويه بترجمة الكتب التي وصلت إليه من مدونات الأطباء والحكماء مثل أبقراط وجالينوس وغيرهما. فقد عنى العلماء أكثر بترجمة الكتب أيام الرشيد، عما كان ذلك أيام المنصور والمهدي؛ وذلك لأن نزعة الرشيد كانت أقوى وزمنه أهدأ وماله أكثر، خصوصًا وقد توافد على بغداد كثير من العلماء العارفين باللغات من السريان والفرس والهنود والروم، وكان منهم من تعلم اللغة العربية؛ لأنها اللغة الرسمية للدولة، فحملهم على ترجمة الكتب، وقد توسعوا في الترجمة، وترجموا غيرها من فروع الفلسفة، إذ كان الطب والتنجيم يعدان فرعين من فروعها، بجانب المنطق وما وراء الطبيعة وغير ذلك.

وكان الرشيد في حروبه الكثيرة مع البيزنطيين، يفتح بلادًا ومدنًا تحتوي كتبًا يونانية ورومانية كثيرة، فلم يكن يحرقها أو يبددها، بل ينقلها إلى بغداد في عناية[1]، من ذلك أنه عثر أثناء حروبه في أنقرة وعمورية على كثير من الكتب، وحملها إلى

(1) أحمد أمين: هارون الرشيد، ص114.

بغداد، وأمر طبيبه يوحنا بن ماسويه بترجمتها إلى العربية، وقد علت منزلة يوحنا عند الرشيد فقرَّبه إليه حتى وضع جميع المدارس تحت مراقبته، وكان فاضلًا طبيبًا محترمًا عند الملوك خدم الرشيد والمأمون والواثق والمتوكل وعدا عن الكتب التي ترجمها، فقد كان له تآليف عظيمة منها كتاب البرهان وكتاب الحميات والكناش المعروف بالمشجر[1].

وكان لطبيب الرشيد بختيشوع وجبريل ولده جهودًا كبيرة ونقلوا كتبًا متعددة. وممن اشتهر بالنقل الحجاج بن مطر قام بترجمة كتاب إقليدس في الهندسة، وكانت ترجمته إلى العربية هـذه أول مرة، ثم ترجم فيما بعد ترجمة ثانية، وميزوا الأولى بأن أطلقوا عليها الترجمة الهارونية، نسبة إلى هـارون الرشيد، وتمييزًا له عن كتاب إقليدس الذي نقل في زمن المأمون ثم أصلح نقله فيما بعد ثابت بن قرة الحراني[2].

ولم يكن التشجيع على الترجمة مقتصرًا على جهود الخليفة الرشيد وحده، وإنما شاركه في ذلك عظماء الدولة وأمراؤها، ويأتي في مقدمتهم وزيره يحيى بن خالد البرمكي، الذي أمر بترجمة كتاب المجسطي، فكان أول من وعي بتفسيره وإخراجه إلى العربية، وفسره لَهُ جماعة فلم يتقنوه ولم يرضَ بذلك، فندب لتفسيره أبا حسان وسلمان صاحبا بيت الحكمة، فأتقناه واجتهدا فِي تصحيحه بعد أن أحضرا النقلة المجودين فاختبر نقلهم وأخذ بأفصحه وأوضحه، وقد قد قيل إن الحجاج بن مطر نقله أيضًا[3].

ومن المترجمين الكبار زمن الرشيد منكة الهندي الحكيم، من المشهورين من أطباء الهند، ومن جملة ما نقله منكة الهندي من اللغة الهندية إلى العربية كتاب سيسر، وعشر مقالات، ويجري مجرى الكناش نقله بأمر يحيى بن خالد البرمكي،

(1) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، 1/ 346. القفطي: أخبار الحكماء بأخبار الحكماء، 1/ 282 – 283.

(2) محمد كرد علي: الترجمة عند العرب، مجلة المقتبس، العدد 89 – 1 يونيه 1914م.

(3) القفطي: أخبار العلماء بأخبار الحكماء، 1/ 79.

وكتاب أسماء عقاقير الهند، فسره لإسحاق بن سليمان الهاشمي، ونقل كتاب شاناق الهندي في السموم، نقله من الهندي إلى الفارسي، ومنهم كذلك ابن دهن الهندي الذي كان إليه بيمارستان البرامكة نقل إلى العربي من اللسان الهندي[1].

وهكذا صارت الترجمة تتطور وتزدهر شيئًا فشيئًا في عهد الرشيد حتى غدت الترجمة سياسة أو (إستراتيجية) عامة للدولة العباسية، ولا ترتبط برغبة هـذا الخليفة أو ذاك الأمير، كما أنها لم تعُدْ تتعلق بميدان دون آخر، وإنما أصبحت تشمل معظم العلوم والمعارف التي ازدهرت في الحضارات القديمة[2].

(1) ابن النديم: الفهرست، 303 – 304. ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، 1/ 375. عبد الحي بن فخر الدين الحسني الطالبي: الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام المسمى بـ (نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر)، 1/ 57.

(2) جميل نخلة المدور: حضارة الإسلام في دار السلام، ص163. بيت الحكمة في بغداد .. رمز للحوار بين الحضارات، مجلة بيت العرب – تصدرها بعثة جامعة الدول العربية بجمهورية الصين الشعبية– العدد 47. لسنة 2004م.

obeikandl.com

ثامنًا: صناعة الورق في عهد هارون الرشيد

تضافرت عوامل عدة أدت إلى هـذه النهضة العلمية الكبيرة في عهد الرشيد رحمه الله، ويأتي في مقدمة هـذه العوامل انتشار صناعة الورق والوراقين. فقبل عصر الرشيد كان الرِّق هـو المستعمل في كتابة القرآن الكريم لطول بقائه أو لأنه موجود عندهم حينئذ، وبقى الناس على ذلك إلى أن ولي هـارون الرشيد الخلافة، وظاهر الحال أن العرب كانوا يكتبون في كل من الجلود والأوراق في عهد الدولة الأموية وصدر صالح من عهد الدولة العباسية، وأن الورق لم يستعمل بكثرة ظاهرة إلا منذ أشار الفضل بن يحيى البرمكي بصناعة الكاغد (الورق).

ويذكر القلقشندي أنه: "لما كثر الورق وفشا عمله بين الناس أمر ألّا يكتب الناس إلا في الكاغد؛ لأن الجلود ونحوها تقبل المحو والإعادة فتقبل التزوير، بخلاف الورق فإنه متى محي منه فسد، وإن كشط ظهر كشطه. وانتشرت الكتابة في الورق إلى سائر الأقطار، وتعاطاها من قرب وبعد، واستمرّ الناس على ذلك»[1].

ومع كل ما ذكرنا فإنه ليس لدينا ما يثبت أن هـارون الرشيد أمر بناء مصانع للورق، غير أن ول ديورانت في قصة الحضارة ذكر أنه تم افتتاح مصنع للورق في بلاد الإسلام في بغداد عام 179هـ/ 794م على يد الفضل بن يحيى وزير هـارون الرشيد، ونقل العرب هـذه الصناعة إلى صقلية وأسبانيا ومنهما انتقلت

(1) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، 2/ 475 – 476. سعدي ضناوي: موسوعة هارون الرشيد، 3/ 598 – 599. عبد السلام هارون: تحقيق النصوص ونشرها، ص17. بتصرف.

إلى إيطاليا وفرنسا[1].

لقد قدَّم هـارون الرشيد خدمة جليلة للعلم والعلماء بتلك الخطوة الجريئة بأمر انتشار صناعة الورق في البلاد الإسلامية، مما سهَّل عمليات الكتابة والتأليف ونسخ الكتب وانتشارها، وجعلها في متناول الجميع، ومن هـنا بدأ العرب يصدرون علومهم بسهولة ويسر إلى بلدان العالم أجمع.

obeikandl.com

(1) ول ديورانت: قصة الحضارة، عصر الإيمان، 13/ 169 - 170.